٨٨ - في الكتب

لا أدري كيف نشأ حبّي للكتب، فقد ولدت في أسرة لا تملك كتباً ولا تقتنيها . ثم اني نشأت في بيئة يخفي أهلها الكتب تحت برانيسهم ويودعونها في خزائن المساجد تحت الأقفال والمفاتيح . ولقد نسيت أكثر ذكريات صغري، ولكنني لم أنس الذكريات التي تمتّ الى الكتب بصلة . فاني لم أنسَ خزانة الكتب التي كنت اراها في دار عمي . وما زلت اتحسر الى اليوم كلما ذكرت اني لم اتمكن من معرفة ما فيها . وأنى لي ذلك وقد كانت مقفلة بقفل متين كثيراً ما تسلّلت اليه خفية وحاولت فتحه فلم أفلح .

وأمرّ بطور الصبا فلا أذكر منه الا لهفي على الورق المكتوب كيفما كان نوعه .

وانتقل الى طلب العلم بتونس العاصمة . وأول ما بَهَرَني في تونس ومَلَكَ عليَّ مشاعري هو واجهات المكتبات . وما زلت الى اليوم أقف أمامها حالماً أقرأ العناوين واتعرف اسماء المؤلفين . وقد كنت اتلقى من والدي كل شهر قدراً زهيداً من المال فانفق معظمه في شراء كتب قديمة قذرة ...

وقد كانت عندنا في المدرسة مكتبة يتولى امرها التلاميذ أنفسهم . وكان أسفي شديداً إذ لم ينتخبني رفاقي حافظ المكتبة . ولعلّ قصري هو الذي حرمني وجنى عليَّ في جملة ما جنى . على أني ثأرت لنفسي من هذا الإقصاء، فقد كنت أطوف على جميع مناضد الطلبة واستخرج ما فيها من الكتب واطالعها حين يكون اصحابها خارج القسم . وبذلك أمكنني معرفة ما في الكتب من صنوف المؤلفات .

محمد الحليوى